دور الشعارات

في تشويه حقائق الإسلام

ليس خافياً أن إسلام المسلمين أشد ما يغري المستعمرين بحربهم والائتمار بهم، ولم يعد خافياً أيضاً أن هؤلاء المستعمرين قد أنهوا منذ عصر بعيد حرب الحديد والنار، وبدؤوا حرب الفكر والعقيدة والأخلاق.

ولقد كانت عِبَرُ الحروب الصليبية وآثارها أول منبه لهم إلى ضرورة تبديل السلاح، وتغيير الطريق... ولقد بدأ أول مظهر للسلاح والطريق الجديدين حينما ظهر أول مستشرق ومبشر يدلف بخطا متلصصة إلى العالم الإسلامي، وهو (ريمون لول).

أجل، إن هذا ليس خافياً على أي مثقف ناله قسط من الوعي.

ولكن الأمر الذي لا يزال خافياً - وياللأسف - عن فكر كثير من المسلمين، هو الكشف عن أحابيل الغزو الفكري الخطير، وتعرية المكائد التي يُبعَثُ بها لتسعى إلى أذهان المسلمين وقد ارتدت رداء العلم والفكر والتنوير.

ولقد كان من نتيجة خفاء هذا على كثير من المسلمين أن تسلل هذا الغزو إلى أفكارهم، ثم ولَّد الشكوك والوساوس في

عقولهم، ثم طبعهم بطابع التبعية الفكرية لأولئك الغزاة المجرمين.

إنني لن أتحدث عن تفصيل هذه الأحابيل الفكرية وطبيعتها، وكيفية دفعها إلى أذهان الغافلين لتبِيضَ فيها وتفرِّخ، فلذلك حديث طويل، ولكني أستطيع أن أتناول منها نموذجاً صغيراً يكشف للقارئ عن حقيقة الصور والنماذج الأخرى، ويُزيح اللِّثام عن جملة الحرب الفكرية الخطيرة التي تقودها ضد الإسلام مجموع الدول الاستعمارية على اختلافها في العقيدة والسياسة والرأي، ولنطلق على هذا النموذج اسم (دس الشعارات)، أي اختلاق شعار ما، لم يعرفه الإسلام في شيء من أسسه ومصادره، ثم لصقه خفية بجملة من حقائق الدين، ثم تناوله بالتكرار والترديد في المقالات والبحوث ومختلف المناسبات، حتى إذا صقلته الآذان، غدا وكأنه شعار صادق لبعض حقائق الإسلام جاء به القرآن أو نادى به الرسول ﷺ أو تبناه اجتماع المسلمين[١].

وسرعان ما يكرّ هؤلاء الذين صنعوا هذا الشعار، وانطلقوا يحاربون الإسلام من منفذه ويتخذون منه دليلاً على تهافته أو ضعفه أو خطئه، وكأنهم ليسوا هم الذين أقبلوا فشوهوا به وجه الإسلام ليمكنهم ذلك أن يقولوا في حقه ما يشاؤون!...

(١) من هذه النماذج شعار «التراث» تعبيراً عن شرائع الدين، وشعار «الأفكار الإسلامية» وشعار «رجال الدين».

وليس أكثر من الأمثلة على هذا النوع من التسميات والشعارات الظالمة، ولكن فلنتناول منها أيضاً نموذجاً واحداً.

من هذه الشعارات إطلاق كلمة (التقاليد الإسلامية) على معظم الأحكام الاجتماعية للإسلام، فلقد سرت هذه التسمية في بحوثنا سرياناً شاملاً حتى أصبحت تستعمل من قبل كثير من دعاة الإسلام أنفسهم دون أن يتهيأ لها من يستوقفها في أول الطريق عن التسلل والتوغل، حتى يكشف للناس عن هويتها ويستطلع ما وراءها ويعلم القوة الدافعة لها.

ولكن لا بأس.. فلنحاول أن نكشف عن هويتها وحقيقتها بعد فوات الأوان، فربما كان في ذلك عبرةٌ لنا، وإيقاظ لمن غلبت عليه الغفلة.

إن كلمة (التقاليد) إنما تعني في وضع اللغة العربية وما تواضع عليه عرف علماء الاجتماع، مجموع العادات التي يرثها الأبناء عن الآباء والأجداد، أو التي تسري - بعامل الاحتكاك - في أهل حي من الأحياء أو بلدة من البلدان، بشرط أن يكون دافع التقليد المجرد هو العصب الرئيسي الذي يمد في تلك العادات أجل الحياة والبقاء.

فجميع ما اعتاده الناس من أنماط الحياة في مجتمعاتهم، ومن مظاهر اللهو في أفراحهم وأعراسهم، ومن أشكال الحداد في مآسيهم وأحزانهم، مما حاكته عوامل التوارث القديم أو الاقتباس التلقائي عن طريق التأثير والاحتكاك جميع ذلك يسمى في عرف اللغة والاجتماع (تقاليد).

ولا ريب أن أمة ما، كلما كان ارتباطها بقيود هذه التقاليد أحكم وأوثق، كانت قدرتها على التحرر والإبداع أقل وأضعف؛ ذلك لأن كلاً من عاملي التأثر والتأثير متقابلان متعارضان، فلا بد أن تكون قوة أحدهما مظهراً للضعف في الثاني. وإذا علمنا أن معظم شعارات العصر الحديث من تحرّر، وتقدمية، وانطلاق، إنما يعني أول ما يعني الانعتاق من قيد هذه التقاليد - أدركنا مدى ما تنقذف إلى هذه الكلمة من السهام والحراب.

غير أن جميع هذه السهام والحراب تضيع في غير جدوى - في حساب أولئك الذين وقفوا عمرهم وأفكارهم على حرب الإسلام - إن لم تكن تصيب كبد الإسلام ومبادئه. فكيف السبيل إلى ذلك؟!..

السبيل هو أن يؤتى بمعظم مبادئ الإسلام وأحكامه، فتقام من خلف ستار (التقاليد) التي تنفذ في نحرها سهام المدنية الجديدة والفكر المتحرر، ولا شك أن السهام ستخترق الستار حينئذ لتستقر في كبد ما وراءه!...

وهكذا يستفيق المسلمون ليجدوا معظم مبادئ الإسلام وأحكامه: كشؤون الزواج والطلاق، وحجاب المرأة وصيانتها، وعامة قضايا السلوك والأخلاق - قد أسبل من فوقه رداء «التقاليد» وأصبح العنوانُ الدالُّ على جميع ذلك على صفحات الكتب والجرائد والمجلات، وفي ندوات الباحثين والمثقفين، وفي رأي الكتاب والمفكرين هو (التقاليد الإسلامية)!...

وربما دخل في غمار هؤلاء كثير ممن لا يريدون بالإسلام سوءاً، ولا يضمرون له كيداً، ولكنهم وجدوا تسمية راجت على ألسُن بعض (القادة) أو الباحثين، ولمعت في صدور بعض الصحف والمجلات، فانساقوا إلى محاكاتهم، ومشايعتهم بدافع (التقليد) الحقيقي، ودون أن يكلفوا أنفسهم لذلك أي تفكير أو بحث.

غير أن هذا أيضاً ليس هو محل الشاهد... فما الذي حدث بعد ذلك؟.

حدث أن أخذ هذا الدس الخطير يثمر حناظله السامة في ميدان التربية والتوجيه الإسلامي، لقد أخذ الشاب الذي ينشأ في أسرة محافظة أو يعهد به إلى مربين ومرشدين لا يتلقى منهم المبادئ والأخلاق الإسلامية إلا على أنها قيود مؤسفة، إذ هي لا تحمل أمامه إلا اسم (التقاليد)، فهو لا ينفذها إلا كما ينفذ المسجون وظائفه منتظراً أول فرصة للانفلات والخلاص. فكلمة (تقاليد) توحي إليه أن قيمة السلوك والخلق الإسلامي ليست بسبب أنها تتضمن شرعة إلهية يكمن فيها سعادة البشر - كما هو الحق - وإنما بسبب أن كلاً من السلوك والخلق الإسلامي ليسا أكثر من عادات قديمة موروثة من الآباء والأجداد.. ولا ريب في أن النتيجة القطعية لهذا الإيحاء والفهم الخاطئين هي أن يضيق هذا الشاب وأمثاله ذرعاً بهذا الميراث القديم الذي يراد فرضه على المجتمع في عصر كل ما فيه متطور ومتقدم ومتحرر وجديد.

ولولا جريمة هذا الشعار المدسوس، لأمكن لمثل هذا الشاب

أن يعلم بكل سهولة أن سلوك الإسلام إنما هو مبدأ مبني على مقتضيات العقل والمصلحة، ومثل هذا لا سلطان ليد التطوير والتبديل عليه البتة، فالجريمة التي أثبت العقل أنها جريمة لا تنقلب فضيلة مع تقدم العصر والزمن، والفضيلة التي أثبت العقل أنها كذلك لا تنسخ مع تطور الزمن إلى رذيلة أو جريمة، ذلك أن يد التطور والتجديد، إنما تمتد - كما هو معروف - إلى الأسلوب والشكل لا إلى الموضوع والجوهر.

إن التجديد والتطوير قد يمتدان إلى كيفية وضع مائدة الطعام وكيفية تناوله، ولكنهما لا يمتدان أبداً إلى إلغاء الطعام من حياة الإنسان على اعتبار أنه من التقاليد التي ينبغي أن ينسخها التحرر.

لقد أخذت هذه الكارثة التربوية في صفوف جيلنا المسلم تعظم وتستفحل منذ أن سُمح لمثل هذا الشعار الزائف المدسوس أن يتسلل إلى البحوث والمصطلحات الإسلامية، دون تعرف على هويته، ودون تأمل فيما قد يثمر من مثل هذا الزيف والتضليل.

ومع هذا فليس أسهلَ على أي مسلم من أن يدرك أن الإسلام الذي جاء يهدم التقاليد ويقضي على كل امتيازاتها من مظاهر القداسة الموهومة، لم يكن ليتبنى في الوقت ذاته الدعوة إلى التقاليد، ولا ليخط صراطه على ركام من الطقوس والعادات التقليدية البائدة.

وليس أسهل على أي مسلم عاقل من أن يدرك الفرق العظيم

بين تقاليد الناس في أفراحهم وأحزانهم، ومواضعاتهم الفكرية في قضايا سلوكهم وأخلاقهم. كل إنسان يعلم أن الأولى إن هي إلا نسيج من التوارث والاحتكاك التلقائي، وأن الثانية أحكام يطلقها العقل والفكر في جو مشبع بوسائل الدرس والبحث، ولا ينقص شيئاً من قيمة التعقل والتدبر فيها، أنها جاءت عن طريق الدين وبأمره، فما عُرف الإسلام في أحكامه ومبادئه بمزيّة أعظم ولا أبين من مزيّة الاهتداء بنور المنطق والارتباط بميزان العقل السليم.

إن الدين الذي جاء بشريعة الصيانة والستر للمرأة لم يأمر بذلك انسياقاً وراء عادة أو أعراف، ولكنه أَمْرٌ فُصِّل على قالب معين من الهيئة والشكل ليملأ مكانه في بناء الهيكل الاجتماعي للمدنية الإسلامية، منسجماً كل الانسجام مع مجموعة البناء من جهة ومع الفطرة البشرية ومقومات السعادة الإنسانية من جهة أخرى.

فالسعادة الإنسانية تقتضي تنظيم المسؤولية، وهذا يستوجب تنظيماً لعلاقة الرجل بالمرأة، وتنظيمُ هذه العلاقة يستلزم أن تكون المرأة من حياتها الاجتماعية في علو شامخ، وأن تظل مطلوبة من قبل الرجل لا طالبة. وضمان بقائها كذلك يستوجب مزيداً من العفة والصيانة لدى المرأة حتى يُغلقَ أمام الرجل كلُّ باب للاستمتاع بها إلا باب الزواج، وتحقيق المزيد من عفتها وصيانتها يقتضي تحديد لباسها والإصرار على ضرورة احتشامها.

فأين مكان هذه الحلقات المترابطة في انتظام فكري وتناسق

منطقي من دعوى (التقاليد) أو العادات أو الطقوس؟!.. وما يقال في أمر المرأة وشأنها يقال في سائر أحكام الإسلام ومبادئه المختلفة.

إن دول الاستعمار في هذا العصر تسعى إلى المكر بالإسلام والمسلمين من مئات السبل والأبواب وما أمر دس الشعارات إلا سبيل واحدة من هذه السبل... فما الذي يصنعه المسلمون وحكوماتهم في سبيل الكشف عن هذا المكر وإغلاق السبل دونه؟... ليس المهم أن نتقن النطق بكلمة (الاستعمار) كلما حانت لذلك مناسبة، إنما المهم أن نصدق في العمل على إبطال خطط الاستعمار المكشوفة المعروفة الواضحة...

ولكن فئة من الناس ظهرت على حين غرة في مجتمعاتنا العربية الإسلامية يطيب لها أن تقسم الناس فيها إلى فئتين: ظلاميين ومتنورين، فما وافق منهم أمزجتها فهم متنورون، وما خالف منهم أمزجتها فهم - لسوء الحظ - ظلاميون.

إنهم يختصرون الطريق إلى الحكم بهذين القرارين، قفزاً فوق قرار الاتهام، وبعيداً عن الميزان أو القانون الذي على أساسه يتم الحكم!!..

إنما هو المزاج.. ولا شيء غير المزاج.

أما نحن فلسوف نحاسب أنفسنا من خلال مواقفنا التي لا رجعة لنا عنها من العلم أولاً، والدين ثانياً، والأخلاق الإنسانية ثالثاً، نحاسب أنفسنا من خلال مواقفنا هذه، محتكمين

إلى ميزان واحد لا بديل عنه، ألا وهو ميزان العلم في قراراته اليقينية التي لا معدل للعقل عنها، ولسوف نقبل بما يقرره العلم في حقنا، وما كان العلم يوماً إلّا الضياء الأبلج وما كان المحتكمون إليه إلا المستنيرين بضيائه، الأمناء تحت جناح حكمه.